PSSP
Peace and Security Studies
منصة دراسات الأمن والسلام

إصـــــدار فكـــــري

تناقضات الثقافي والسياسي في تشكلات الهوية الوطنية الصومالية

الكاتب
نبيل البكيري

صادر عن:
منصة دراسات الأمن والسلام

2026

ملخص الدراسة

تعتبر الهويات الوطنية الحديثة معطى سياسي ومعرفي دستوري حديث ومركب من هويات مختلفة ثقافية ودينية واجتماعية لكنها أي الهوية الوطنية تكاد تكون مرتكزة حول مفهوم الهوية السياسية تحديداً، ومفهوم الهوية الوطنية مرتبط بشكل أو بآخر بمسالة نشوء فكرة الدولة الوطنية الحديثة من أساسها، وهو معطى حديث لا يتجاوز منتصف القرن العشرين الماضي عربياً، حيث بدأت تتشكل الدولة الوطنية في العالم الثالث تحديداً أي دولة ما بعد الاستعمار، وهي أي الدولة الوطنية أيضاً معطى قانوني وسياسي لا يزال يتشكل حتى اللحظة، مع كل المآخذ والنقاشات النقدية التي تثار اليوم حول جدوى فكرة الدولة القومية والوطنية الحديثة من أساسها.

ولما كانت فكرة الدولة الوطنية لا يزال يثار حولها الكثير من الجدل والنقاش، وهذا ما لا يهمنا هنا في هذه الورقة، حيث أن مدار نقاشاتنا تتمحور حول فكرة الهويات وتزاحمها وتناقضاتها في ذات المجال الواحد للأمة الواحدة، وهذا الملمح هو ما شدني كثيراً ومنذ فترة طويلة وأنا أتابع الحالة السياسية الصومالية، وكيف ظهر لي أن ثمة مأزق ما ومشكلة ما يجب أن نقف عندها جيداً، و نتفحص هذه الحالة وهي حالة غريبة و ملاحظة في الحالة والشخصية الصومالية، حيث يتشدد الصومالي في تمسكه بهويته الثقافية والدينية ولكنه لا يتشبث بنفس القدر و الطريقة بهويته السياسية ولا يتحمس لها كثيراً.

هذا الملمح هو ما شدني للبحث عن أسباب هذه الظاهرة ومقاربة هذه المفارقة اللافته في الشخصية الصومالية وكيف تتمدد وتكاد تتحول لحالة عامة وظاهرة سياسية ملفتة جداً، مما يستدعي بحث هذا المأزق و تتبعه لمعرفة جذوره وأسبابه التي ساهمت بشكل أو بأخر في بطئ تعافي المشهد السياسي الصومالي ومن ثم تباطؤ جهود استعادة الدولة الصومالية الفدرالية الموحدة على مدى ما يقارب عقدين ونصف منذ مؤتمر عرتة الشهير في مايو 2000م.

فما شدني لتناول ودراسة هذه الحالة هو ربما لأنه تبين لي أنه لا يوجد شعب من الشعوب وأمة من الأمم تتشبث بهويتها الثقافية والدينية و واحدية هذه الهوية كالأمة الصومالية وكيف تتمسك بهويتها الثقافية أينما حل أفرادها وارتحلوا في المنافي والشتات، وهذا التمسك الشديد بالهوية الاجتماعية والثقافية والدينية هو جزء من تركيبة الشخصية الصومالية وأخص خصائصها، وظاهرة تمسك الصومالي الشديد بهويته الثقافية والدينية والاجتماعية ظاهرة جديرة بالتأمل والدراسة والبحث والنقاش.

لكن على العكس من هذا التمسك الشديد للصومالي بهويته الثقافية والدينية والاجتماعية ثمة ظاهرة نقيضة لها تكمن داخل تكوينات الشخصية الصومالية نفسها , وقد لا تظهر في صورة واضحة ومُعبر عنها بقدر ما تعكسها الممارسات والتصرفات السياسية للنخب الصومالية و تأثير ذلك بوضوح على الرأي العام ومن ثم بقية السواد العام للأمة والشعب الصوماليين.

فضعف وربما غياب الوعي الهوياتي السياسي في ذهنية الفرد الصومالي, شيء ملاحظ ومدرك وأكثر وضوحاً اليوم من أي وقت مضى, حيث تجد الصوماليين نسخ متطابقة من بعض فيما يتعلق بصورتهم الهوياتية الدينية والاجتماعية والثقافية لكن لا تجد هذا حاضراً في نسق الهوية السياسية لدى الفرد الصومالي الذي لا يجد غضاضة في العيش تحت أي هوية سياسية ولا يمثل له ذلك أي قلق أو مشكلة, بل ويسعى الكثير منهم على الدوام للبحث عن أي هوية سياسية يستظل بها ويعيش في ظلها, ممثلاً في بحثه الدائم عن وطن بديل ومن ثم وثيقة السفر والانتقال لمجتمع أخر ولو كان مجتمع يتناقض كلياً مع هوية الصومالي الثقافية والسياسية معاً.

ما سنحاول القيام به من خلال هذه الورقة, هو دراسة هذه الظاهرة المتناقضة و محاولة تفكيكها ومعرفة أسبابها و بذورها الأولية داخل تكوين ذهنية الشخصية الصومالية, وهي كيف يستميت الصومالي في تمسكه بهويته الثقافية والدينية ولكنه في ذات الوقت لا يهمه كثيراً ما يتعلق بهويته السياسية و ربما لا يعنيه مفهوم هويته الوطنية السياسية في شيء, وهي ظاهرة غريبة وملفتة لا تستقيم مع نمط تمسك الشخصية الصومالية واعتزازه ومحافظته على هويته الدينية والثقافية, حيث يفترض أن تكون مسألة الهوية الوطنية بكل مستوياتها ودوائرها يكمل بعضها بعضا وليس يناقض بعضها بعضا كما هو الحال في بنية الهوية الوطنية الصومالية وعدم تكاملها السياسي والثقافي لدرجة أنه ربما يمكن القول أن الشخصية الصومالية كائن بلا هوية سياسية اليوم.

ستركز هذه الدراسة في بحث أسباب ومسببات ومبررات مثل هذه الظاهرة وهل هي قديمة مرتبطة بفكرة تقسيم الصومال الكبير أم هي أيضا معطى حديث نتاج لطبيعة التركيبة القبلية والعشائرية للأمة الصومالية, وهل أسهمت النخب السياسية التي شغلت فراغ السلطة الصومالية طوال العقدين الماضيين وذلك من خلال فشلها في التنبه لهذه الظاهرة ومن ثم إغفال الاشتغال على ملئ فراغ هذا الفضاء الهوياتي السياسي المخيف الذي سيشكل تحدي حقيقي أمام أي انطلاق نحو مستقبل استعادة الدولة الصومالية في صومال ما بعد انهيار الدولة الصومالية في عام 1990م.

ومن هنا، ثمة واجب وطني ومعرفي على النخب العلمية والثقافية الصومالية الاشتغال على تجاوز هذه الفجوة وملئ فراغها الهوياتي الكبير الذي يشكل عائقاً كبيراً أمام أي تقدم نحو استعادة الدولة و كامل السيادة الوطنية للأمة الصومالية المشتتة بين عواصم الشتات والمنافي والتي لم يعد يشدها لوطنها شيء حتى يغريها بالعودة والمساهمة في البناء والتنمية والاستقرار رغم كل ما تزخر به الأرض الصومالية من فرص و مقدرات وإمكانيات لو تم توظيفها في عملية البناء واستعادة الدولة لتحولت الصومال لدولة وازنة ومهابة في المنطقة في مدة قد لا تتجاوز عقد أو عقدين من الزمان.

توطئة

ككل المجتمعات العربية والإسلامية والمجتمعات العالم ثالثية مثلت فكرة الدولة الوطنية الحديثة للمجتمع الصومالي ومن ثم الهوية الوطنية فكرة جديدة كفكرة قادمة من خارج السياق الثقافي والاجتماعي والحضاري لهذه المجتمعات، حيث وأن فكرة الدولة الوطنية الحديثة قادمة من سياق حضاري مغاير و هو السياق الغربي الأوروبي الذي تفتقت لديه فكرة الدولة الوطنية منذ بداية القرن التاسع عشر الذي كان لمؤتمر وستفاليا 1648م دورُ كبيرُ في بلورة فكرة الدولة الوطنية ببعدها القومي الوطني الذي يُعرف الدولة بأنها فكرة ذات أبعاد ثلاثة " الأقليم والشعب والسيادة " و التي تُحتكر فيها الدولة تمثيل الناس كما تحتكر استخدام العنف القانوني والتمثيل الهوياتي الوطني لهذا الشعب ممثلاً بالسيادة.

لم تكن الأمة الصومالية أمة منعزلة عن سياقها التاريخي، فقد كانت أمة ذات تاريخ ممتد عرفت فيه صوراً عدة للدولة بمفهومها التاريخي كسلطنات عدل وأوفات في الشمال ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين وكذلك سلطنة أجوران في الجنوب والتي استمرّت ما بين القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر، وكلها سلطانات كانت تقوم على فكرة الشريعة الإسلامية والجهاد وخاصة في فترة الزعيم الصومالي الإمام أحمد جُري الذي كاد أن يحطم النصرانية الحبشية بحسب المستشرق الفرنسي رينيه باسه [1].

وعلى أنقاض أمارة أجوران نشأت عدة سلطنات كسلطنة جلدي ومشيخة هراب في الجنوب وسلطنة مجرتين و ورسنغلي في الشمال واللتان أستمرتا حتى مجيء الاستعمار ، حيث زالت هذه السلطنات القبلية بمجيء الاستعمار الغربي عبر توقيع اتفاقيات حماية مع السلاطين ثم الانقلاب عليهم وضمهم للمستعمرات [2].

(1) سالم سعيد سالم، بناء الدولة الصومالية الإشكالات التاريخية ، بناء الدولة الصومالية رؤية وافاق، الطبعة الأولى 1444-2023 الطبعة الأولى دار الفكر العربي للطباعة والنشر. ص 15

(2) سالم سعيد سالم، مرجع سابق ص

فقد أدرك الغربيون جيداً من تجربتهم الطويلة مع الشعب الصومالي أنه شعب صلب ومقاتليه أشداء لا يهادنون فيما يتعلق بدينهم ووطنهم وهو ما حفز المستعمرين الغربيين لرسم صورة واضحة عن كيفية التعاطي مع الأمة الصومالية وجغرافيتها الكبيرة التي تصل لأكثر من مليون كيلو متر مربع في شكلها الجغرافي التاريخيّ وهو ما يُعرف بالصومال الكبير قبل التقسيم الغربي له بين صومال بريطاني وآخر إيطالي وفرنسي وحبشي.

وحينما استقلت الصومال عام 1960 اتحدت تحته كل من الصومال الغربي والجنوبي، وبقي هناك ثلاثة أجزء أخرى هي الصومال الفرنسي جيبوتي التي استقلت وبقت تحت النفوذ الفرنسي و الصومال الغربي التي أعطيت لأثيوبيا وهي ما يُعرف بـأوجادين والتي تُقدر مساحتها مساحة جمهورية الصومال الفيدرالية فيما ضُمت منطقة NFD لكينيا، وهو ما يعني تقسيم الصومال الكبير إلى كانتونات مما أضعف بشكل كبير فكرة الهوية الوطنية السياسية للصومال الذي توزعت أراضيه وشعبه على دول عدة مجاورة، وهذا ربما كان السبب الأول الذي ربما أسهم في ضرب فكرة الهوية السياسية الصومالية الجامعة و الموحدة.

وذلك لأن الدولة الصومالية الوطنية التي تأسست على أنقاض الممالك والسلطنات والمشيخات لم تكن سوى ثمرة عملية زرع قيصرية تجاهلت المشاعر القبلية والدينية الأصيلة والخبرة العملية للصوماليين تجاه الدولة [3]، وهذه ربما قد تكون سمة عامة في جل المجتمعات التي عرفت فكرة الدولة الوطنية القومية الحديثة، وليست خاصة بالمجتمع الصومالي لكنها ربما أكثر حضوراً بالنظر لطبيعة تكوين المجتمع الصومالي القبلي حديث عهد بهذه الدولة الحديثة، التي اصطدمت مبكراً بالمجتمع و ممانعته الشديدة لتغولات الدولة الوطنية في أخص خصوصياتهم التي يرون أنها سلبت منهم الكثير.

الأمر الأخر، لم توجد دولة حقيقة إسمها الصومال قبل عام الاستقلال، كما أنه لم تكن هناك دولة واحدة حكمت كل الأراضي التي كان يسكنها الصوماليون باستثناء سنوات محدودة حكمها الاستعمار البريطاني، أو شهور معدودة حكمتها إيطاليا، باستثناء منطقة جيبوتي الحالية [4].

وكل هذا يعني أن الصومال قبل الاستعمار الغربي عاش مقسماً ومجزءاً لممالك وسلطنات ومشيخات متصارعة مع بعضها البعض ولا تتحدُ إلا في حال داهمها خطرٌ خارجي أو مجاعة أو وباء، أما طبيعة هذه الدويلات فقد ظلت دويلات سلطانية تهيمن عليها القبيلة الأكبر في مناطق نفوذها حيث مضارب أرض القبيلة التي ينتمي لها السلطان أو الزعيم الحاكم للقبيلة وهو ما جعل الانتماء القبلي يبقى الأكثر حضوراً وتعبيراً عنه صومالياً بأشكال وطرق شتى أكثر من غيره.

(3) سالم سعيد سالم ، مرجع سابق ص.
(4) عمر عبد الله محمد، نشأة الدولة الصومالية وتحدياتها، مجلة رؤية التركية العدد56 المجلد العاشر أيار /مايو 2022م ص.

وعلى العموم سنحاول من خلال هذه الورقة مقاربة الأسباب التي وقفت ولا تزال عائقاً أمام لملمة المشهد الصومالي، تلك الأسباب التي تساهم بشكل كبير في إضعاف البعد الهوياتي للهوية السياسية الوطنية داخل تركيبة الشخصية الصومالية، في الوقت التي تسهم في تعزيز وتضخيم وحضور البعد الثقافي والديني والاجتماعي في بنية وتركيبة هذه الشخصية التي يضمر لديها البعد السياسي للهوية مقابل تضخم البعد الديني والثقافي.

ستحاول هذه الورقة أيضاً فك الاشتباك أو الخلط القائم بين مفهومي الهوية الوطنية ببعديها السياسي والثقافي، وما مفهوم و مدلول كل هوية ، عدا عن محاولة فك هذا الاشتباك القائم بين مفهومي الهوية ببعديها الثقافي والسياسي، وما تأثير كل مصطلح من هذه المصطلحات على تصورات الناس وفهمها ومقاربتها لهذه القضايا والإشكاليات.

جذور أزمة الهوية الوطنية

يُعتبر عدم وجود هوية وطنية جامعة لأفراد المجتمع أهم العقبات التي تواجه عملية بناء الدولة،ما يحتم ضرورة التركيز على آليات ووسائل تعزز خلق هوية مشتركة لأفراد المجتمع تشكل الحاضنة والمقوم الأساسي لعملية البناء [5] ويزداد أهمية الهوية الوطنية في ظل شعب متجانس العرق والدين والمذهب والمشرب، ولكن مع ذلك لم نرى في الواقع الصومالي انعكاس جيد وإيجابي لهذه الهويات الثقافية المشتركة في بناء هوية وطنية موحدة تظهر في سلوكيات المجتمع وتوجهاته اليوم.

إن المتأمل لموضوع أزمة الهوية الصومالية لا يمكن أن يخطئ تأملاته ثلاثة عوامل رئيسية تساهم في إضعاف فكرة الهوية الوطنية الصومالية وأولى هذه الإشكاليات هي العشائرية السياسية والقبلية وثانيهما هي انتشار العقيدة الوهابية في الصومال وثالثهما هو مثالية و طوباوية الفكرة القومية التي اعتمدها دستور الاستقلال عام 1960 الذي حدد فكرة المواطنية بطريقة فضفاضة [6].

فالفكرة القبلية أو ما يمكن توصيفها بالعشائرية السياسية أسهمت بشكل أو بأخر في ضرب فكرة الهوية الوطنية الجامعة لأنها أي القبلية تدفع الفرد بالتقوقع والتحصن داخل قبيلته باعتبارها حصنه الحامي له من كل المشكلات وأن الدولة فكرة نقيضة لذلك وأن الولاء للقبيلة أهم من الولاء للدولة وهذا ما حاولت النخبة السياسية عشية الاستقلال تجاوزه ولكن بطريقة أكثر مثالية لا واقعية.

(5) محمد عبد الرزاق حسن وتآمر قرموط ، مجلة سياسات عربية المرجع السابق ص
(6) سالم سعيد سالم ، مرجع سابق ص32

فقُبيـل الاسـتقلال وعقبـه مبـاشرة سـعى حـزب عصبـة الشـباب الصومالـي لتفـادي هـذا المـأزق القبلـي الـذي لا يتناسـب مـع فكـرة الدولـة الوطنيـة وفكـرة المواطنـة المتسـاوية، فعمـل علـى الإعلاء مـن فكـرة القوميـة الصوماليـة و زرع هـذا المفهـوم فـي الأجيـال الشـابة، وبالمقابـل نجـد أن الآبـاء المؤسـسين لحـزب عصبـة الشـباب الصومالـي SYL الـذي أدى الـدور الأسـاسي فـي الاسـتقلال، سـعوا لـزرع مفهـوم القوميـة الصوماليـة البعيـدة عـن العشـائرية فـي وعـي المجتمـع الصومالـي ومـن ثـم التعامـل بين الأفـراد علـى هـذا الأسـاس، وتكريسـاً لهـذا المفهـوم، كان الحـزب يـشترط علـى أعضائـه ضرورة تجسـيد مفهـوم القوميـة الصوماليـة الجامعـة، والقسـم بعـدم الإفصـاح عـن الإنتمـاء القبلـي"[7].

علـى مـدى أكثر مـن ثلاثـة عقـود مـن انهيـار الدولـة الصوماليـة ودخـول المجتمـع الصومالـي فـي حالـة مـن الحـروب الأهليـة الطاحنـة والتي بدورهـا عمقـت مـن حالـة البـون الشاسـع بين فكـرة الدولـة والمجتمـع الصومالـي حديـث عهـد بالدولـة الوطنيـة الحديثـة التي تأسسـت عشـية الإسـتقلال فالوحـدة بين شـمال الصومـال وجنوبهـا فـي مايـو 1960م وهـو مـا أربـك حالـة الاسـتقرار والاسـتدامة للتنميـة السياسـية والاقتصاديـة فـي مجتمـع قبلـي محكـوم بعصبيـة الـدم قبـل كل شيء.

المجتمـع الصومالـي مجتمـع قبلـي عشـائري محكـوم بهـذه التركيبـة القبليـة وهـي تركيبـة شـديدة التعقيـد والحساسـية تجـاه كل مـا يمـس مصالحهـا وأفرادهـا ومكوناتهـا، ولهـذا حالمـا ذهـب المجتمـع الصومالـي عقـب الاسـتقلال وطـرد المسـتعمر نحـو فكـرة الدولـة الوطنيـة حاولـت القبيلـة التكيـف مـع هـذا الوضـع الجديـد المتشـكل نتيجـة للاسـتقلال وتشـكل الدولـة الصوماليـة، " وقـد شـكلت القبائـل قبـل وصـول المسـتعمر ممالـك ودولاً فـي بعـض مناطـق الجغرافيـا الصوماليـة إضافـة إلـى تجمعـات أشـبه مـا تكـون بالدولـة مـن حيـث امـتلاك تراتبيـة تنظيميـة تتمثـل فـي حاكـم / شـيخ قبيلـة ، وجهـاز أمني إضافـة إلـى سـن القـوانين التقليديـة أو مـا يعـرف شـعبيا بـ Xeer والـذي ينظـم التجمـع القبلـي مـن الناحيـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة [8] (محمـد عبـد الـرزاق حـسين و تامـر قرمـوط، مجلـة سياسـات عربيـة العـدد 56 المجلـد العـاشر أيـار /مايـو 2022م صـ12) .

لكـن، لاحقـاً أجـج المسـتعمر النعـرات والصراعـات بين القبائـل، عـن طريـق زرع الـفتن بينهـا، و دعـم التكـتلات والأحـزاب المبنيـة علـى أسـس قبليـة طـوال فترة الاسـتعمار، وحتى بعـد مغادرتـه. وقـد تجلـى ذلـك فـي تكويـن كل عـشيرة لحـزب سـياسي خـاص بهـا، وهـو مـا أدى إلـى وصـول عـدد الأحـزاب السياسـية فـي الـبلاد إلـى 62 حزبـاً [9](المرجـع السـابق) ، ولـم يكتـف المسـتعر بذلـك بـل ضرب فكـرة الحزبيـة السياسـية بذلـك مـن أساسـها، حيـث أثـر ذلـك إلـى حـد بعيـد فـي الوعـي المجتمعـي بآليـات صناعـة التكـتلات الحديثـة وأصبحـت القبيلـة هـي أسـاس كل تكتـل سـياسي أو اجتماعـي أو اقتصـادي [10](المرجـع السـباق).

(7) محمد عبد الرزاق وتامر قرموط، سياسات عربية المرجع السابق صـ
(8) محمد عبد الرزاق حسين و تامر قرموط، مجلة سياسات عربية العدد 56 المجلد العاشر أيار /مايو 2022م صـ12) .
(9) المرجع السابق صـ
(10) المرجع سابق صـ

القبلية و العشائرية السياسية

إن تغافـل النخـب الصوماليـة وتعاميهـا عـن أس المشـكل الصومالـي المتمثـل بالتركيبـة القبليـة المعقدة للمجتمـع وعـدم استيعاب هـذه التركيبـة وكيفيـة التعاطـي معهـا بطريقة تهذب وتستفيد مـن هـذا التنـوع القبلـي والعشـائري وكيـف يمكـن الاسـتفادة مـن الأعـراف والأسلاف القبليـة والتراث القبلـي بشـكل عـام فـي تعزيـز مفهـوم الدولـة والشراكـة والمواطنـة المتسـاوية جعـل هـذه النخبـة للأسـف تعـود مجـددا لقوننـة وشرعنـة العشـائرية السياسـية.

فبعـد مرحلـة الحـرب الأهليـة الطاحنـة والشـتات الـذي عاشـه المجتمـع الصومالـي، تداعـت النخـب الصوماليـة إلـى مؤتمـر عرتـه الجيبوتـي عـام 2000م والـذي بـدوره أسـس لجهـود عديـدة لاسـتعادة الدولـة الصوماليـة وإن بـدت أكثر بطئاً لكنهـا تبقـى جهود مؤسسـة لاسـتعادة مسـار الدولـة الصوماليـة والتي بـرزت أمامهـا العديـد مـن التحديـات والفجـوات البنيويـة التي تعيـق تقـدم المجتمع نحو اسـتعادة دولتـه لعوامـل وظـروف شتى فـي مقدمتهـا ثلاثـة فجـوات بنيويـة رئيسـية متمثلـة بـالبعد السـياسي والمتمثـل بنظـام المحاصصـة القبليـة 4.5 والنظـام الفيدرالـي المتبـع فـي الـبلاد، والبعـد الثانـي الاجتماعـي المتمثـل بـدور المجتمـع المدنـي فـي بنـاء الدولـة و البعـد الثالـث الاقتصـادي والمتمثـل بالمصالـح التجاريـة لرجـال الأعمـال الناشـئة [11].

ولسـت هـذه الأبعـاد الثلاثـة بمثابـة كل مـا يتعلـق بعوائـق بنـاء الدولـة فـي الصومـال ومـن ثـم إضعـاف الهويـة الوطنيـة السياسـية وإنمـا هـي بمثابـة العوائـق الرئيسـية التي تـم رصدهـا ضمـن أدبيـات دراسـات وأبحـاث الأزمـة الصوماليـة يُضـاف لهـا جملـة عوامـل تؤثـر بشـكل أو بأخـر وتسـهم بشـكل مبـاشر فـي إضعـاف فكـرة الهويـة الوطنيـة السياسـية للشـعب الصومالـي، وزيـادة فجـوة هـذه الهويـة السياسـية المتأكلـة للدولـة الصوماليـة.

إن جوهـر نظـام المحاصصـة القبليـة الـذي اعتمـده مؤتمـر عرتـه وشرعنه يشـكل عائقـا كبيراً ظـل يضعف كل الجهـود المبذولـة لاسـتعادة الدولـة الصوماليـة لفعاليتهـا وحضورهـا، حيـث عمل نظـام المحاصصة علـى ضرب فكـرة المواطنـة المتسـاوية كمـا ضرب فكـرة الكفـاءة الوظيفيـة للأفـراد وأصبحـت وظائـف الدولـة العليـا والدنيـا كلهـا خاضعـة لمسـألة المحاصصـة القبليـة وهـو مـا جعـل الكـثير مـن الكـوادر الصوماليـة المؤهلـة بعيـدة عـن تسـنم وظائـف فـي الدولـة وفـي مجـال تخصصهـا و تفضـل البقـاء فـي منافيهـا علـى أن تعـود للمسـاهمة فـي بنـاء الدولـة الصوماليـة.

عـدا عـن ذلـك، مـن أخطـر مـا قدمـه نظـام المحاصصـة القبليـة أنـه ضرب فكـرة الـولاء الـوطني للمسـؤول فـي موقعـه الوظيفـي و الـذي لا يفكـر فـي موقعـه الوظيفـي إلا كيـف يسـتغل وظيفتـه ومنصبـه للإثـراء غيـر الـمشروع فقـط، لأنـه يعـرف أن مـن أتـى بـه لهـذا الموقـع هـو وزن عشيرتـه السـياسي

(11) محمد عبد الرزاق حسين و تامر مجلة سياسات عربية ،العدد 56 المجلد العاشر أيار/ مايو 2022م).

والقبلي وليس كفاءته ومؤهلاته العلمية, وهو ما يجعل الفرد يفكر كثيراً في أن يحقق كل ما يصبوا إليه من أحلام الثراء على حساب أداء عمله و وظيفته وخاصة وأن معظم من يتولون هذه المناصب هم بالضرورة نتاج لمكانته القبلية وليس كفائته المهنية التي يفترض هي من تحدد أهميته.

ونتيجة لهذا الوضع, فإن الإعلاء من الانتماء للقبيلة وتشجيعه ودفع الناس نحو التخندق القبلي والعشائري هو بالضرورة ضرب للهوية الوطنية, و تبخيس الناس وتزهيدهم بها, لأن الفرد حينما يرى أن الانتماء للقبيلة هو مصدر المصلحة والثراء والجاه, فكل هذا يأتي على حساب الانتماء للوطن والمصلحة العامة التي تضمحل وتتلاشى تماماً من فكر واهتمام وسلوك الفرد الذي يعلي من مصلحته القبلية ويقدمها على مصلحته الوطنية العامة.

التمدد الوهابي في الصومال

فقد مثل الانتشار والتمدد الوهابي في السياق الثقافي الصومالي مزاحماً للمنظومة العقائدية الأشعرية الصوفية واحدة من أهم أسباب تبخيس وضعف الهوية الوطنية للأمة الصومالية حيث تميل العقيدة الوهابية إلى التزهيد بالفكرة الوطنية عموماً واعتبار الفكرة الوطنية فكرة وثنية لا يجب أن نقف عندها والاهتمام بها, والوهابية فكرة أممية عموماً تنطلق من عدم إيمانها بالحدود الوطنية الحديثة, وعدم اعترافها بهذا الواقع الناشئ والمتشكل مع قيام فكرة الدولة الوطنية الحديثة.

بعكس الفكر الصوفي فهو فكر يميل للواقعية و يتعايش مع الحقائق الماثلة أمامه ولا يحاول القفز فوق حقائق هذا الواقع وتصادمه معها وخاصة حينما لا تتعارض مصالح أفراده مع حقائق هذا الواقع الجديد كفكرة الدولة الوطنية بكل ما فيها من إشكاليات لكنها تعالج في إطار تصحيح مسار الدولة بآليات السياسة ذاتها لا من خلال الصدام معها مباشرة أو عدم احترامها .

السلفية الوهابية ساهمت في إضعاف الهوية الوطنية الصومالية وخلقت تمزقات مذهبية داخل الوحدة المذهبية للبلاد المتمثلة في اختياراتها العقدية (الأشعرية) والفقهية (الشافعية) ذات المشرب الصوفي , مما أدّى إلى بروز جماعات دينية خارجة على الدولة وعلى ثوابت المجتمع معا ولا يزال مجتمعنا يعاني من إفرازاتها وأبرز تمظهراتها اليوم في الساحة هي حركة الشباب التي تكفر الدولة والمجتمع. وكذلك العشائرية السياسية مضرة بالهوية الوطنية كما ذكرتَ, ولكنني يتراءى لي احيانا أن فشل النخب السياسية في بناء دولة مدنية تقوم على المواطنة عزّز من اللجوء إلى هويات فرعية قبلية او دينية مما اضعف من الولاء العام للدولة. ولولا هذا الفشل لم تجد تلك الهويات الفرعية بيئة خصبة للتمدد والانتشار [12].

(12) عبد الواحد شافعي, حوار للباحث بتاريخ معه على الواتس إب بتاريخ 4 ديسمبر 2024.

ولا شك أن ظاهرة الشباب المجاهدين الصوماليين اليوم هي أحد أبرز تجليات العقيدة السلفية الوهابية بمنزعها الجهادي , هذه الفكرة التي تعمل على تجاوز فكرة الدولة الوطنية الصومالية, وتكفرُ وتُكفِر كل من يؤمن بفكرة الدولة الوطنية التي لا تعترف بها وتسعى لتجاوزها والقضاء عليها, وهو ما يشكل أبرز تحدي أمني وعسكري يتهدد الدولة الصومالية ويقف عائقُ كبيرُ أمام استعادة الدولة الصومالية لمؤسساتها وحضورها السيادي والدستوري على كامل الرقعة الجغرافية للدولة الفدرالية المعترف بها دولياً.

فمن خلال تتبع مسار وخطاب الجماعات السلفية الصومالية في الداخل والخارج يجد هذا المنحي في الممارسة والخطاب السلفي الذي لا يرى أي أهمية للدولة ووجودها هذا عدا عن نشر خطاب تزهيدي بين عامة الصوماليين في الشتات والمهاجر البديلة وخاصة في الجوار الصومالي كينيا وأوغندا وغيرهما وهو ما يتجلى بشكل أو بأخر بحجم التواجد الصومالي في هذه المنافي وحجم أيضا الاستثمارات الصومالية الكبيرة التي تُستثمر خارج حدود الدولة الصومالية التي هي في أمس الحاجة لمثل هذه الاستثمارات للمساهمة في استعادة الدولة وتعافيها واقتصادها.

فالوجود الصومالي في نيروبي وفي سوق إسلي خير مثال على حضور هذا الخطاب التزهيدي بالوطن الصومالي الأم وخاصة حينما تجد حجم تلك الاستثمارات التي تشيد في هذه البلدان وتسهم في رفد اقتصاديات هذه البلدان فيما الوطن الأم محروم منها وهو في حاجة ماسة لها, والملاحظ على هذه الاستثمارات أنها مرتبطة بالجماعات السلفية التي لها حضور وانتشار واسع في أوساط الصوماليين في كينيا وغيرها [13].

إن مثل هذه التوجه والممارسة لدى الجماعات السلفية في أوساط الصوماليين في الداخل والخارج خلق توجه عام لدى معظم الشباب الصوماليين بالعزوف عن العودة للوطن و تلاشي الحنين إليه عدا عن سعيهم الحثيث للبحث عن هويات وجوازات سفر غير صومالية وخاصة أثيوبيا وجيبوتية وكينيا ويتم شرائها بمبالغ كبيرة وذلك لأسباب عدة في مقدمتها هو تسهيل تنقلاتهم و حركتهم فضلا عن أن الدستور الصومالي يسمح بازدواج الجنسية.

(13) حوار للباحث مع أحد السلفيين الكينيين من أصول صومالية في نيروبي, والذي فضل عدم ذكر إسمه أجرى الباحث الحوار في سبتمبر الماضي 2024م.

عـدا عـن ذلـك, يعكـس هـذا التوجـه فـي ذات الوقـت فجـوة كـبيرة فيمـا يتعلـق بارتبـاط الصومالـي بهويتـه الوطنيـة الصوماليـة, ممـا يعكـس حالـة مـن عـدم الإيمـان بأهميـة هـذه الهويـة الوطنيـة الصوماليـة لـدى شريحـة عريضـة مـن الصومالـيين وخاصـة فـي أوسـاط الشـباب الذيـن يـفترض بهـم أنهـم أكثر تمسكاً بهويتهـم الوطنيـة وأكثر إدراكاً لأهميـة تخليـق هـذا الشـعور الـذي يـفترض تنميتـه وتشـجيعه لأهميتـه فـي تخليـق سرديـة وطنيـة متماسـكة مُلهمـة وجامعـة.

تنـتشر المـدارس الدينيـة وخاصـة مـدارس التحفيـظ فـي أحيـاء نيروبـي خاصـة حـي إسـلي الشـهير بالـعشرات وكلهـا مـدارس يغلـب علـى القائـمين عليهـا الاسـاتذة السـلفيون وهـو مـا يـؤدي إلـى تعميـم أفكارهـم العقديـة المتشـددة والتي قـد تتصـام حتمـاً مـع الأفـكار السياسـية التي تديـر الواقـع السـياسي مـن حولهـم فـي الداخـل والمنافـي والشـتات, وهـو ما ينعكـس فـي ثقافة هـذه المحاضن التربويـة الدعويـة التي لا تعلـي مـن شـأن الهويـة الوطنيـة للنـشء والشـباب الذيـن ينشـؤون بهويـات رماديـة متناقضـة بلا أي ملامـح أو إطـار واضـح للرؤيـة السياسـية وكيفيـة التعاطـي مـع الواقـع المحيط بهـم ممـا يبقيهـم بلا أي وعـي سـياسي تجـاه الوطـن الـذي ينتمـون إليـه ولهـذا يندمجـون سريعـاً فـي بيئاتهـم الجديـدة وينسـون فكـرة الوطـن الأم تمامـاً.

النخبة الصومالية وعطب الذات

تمتلـك الصومـال نخبـة علميـة و مثقفـة كـبيرة ونوعيـة منـتشرة حـول العالـم, هـذه النخبـة التي تمثـل رأس مـال الأمـة الصوماليـة اليـوم وخـزان هويتهـا وثقافتهـا باعتبـار الإنسـان المؤهـل هـو رأس مـال أمتـه, وهـذا مـا تمتلكـه الصومـال, فالصوماليـون حـول العالـم مـن الجاليـات الأكثر تأهـيلاً علمياً ويمتلكـون سـمعة طيبـة فـي هـذه المجتمعـات وهـذه السـمعة لـم تـأت مـن فـراغ وإنمـا هـي انعـكاس طبيعـي وحقيقـي لمخـزون القيـم الثقافيـة والدينيـة التي يتمتـع بهـا الشـباب الصوماليـون ويترجمونهـا كل هـذه النجاحـات وفـي مختلـف المجـالات.

فالشـعب الصومالـي شـعب محافـظ اجتماعيـاً لحـد كـبير, ويـحترم ثقافتـه وقيمـه ويفتخـر بهـا كـثيراً وهـذا مـا يـميز الشـخصية الصوماليـة عـن غيرهـا , فتجـد الصومالـي حامـل لقيمـه وثقافتـه حيثمـا حـل وارتحـل, وهـو مـا يجعـل الصومالـي عصي علـى الذوبـان فـي المجتمعـات الجديـدة التي يهاجـر إليهـا, ويظـل محافظـاً علـى هويتـه الثقافيـة مهمـا كانـت المغريـات والظـروف مـن حولـه وقلـة قليلـة مـن يـذوب متنكـراً لهويتـه مـن الصومالـيين.

وبرغم كل هذا، وما نجده من تمسك الصومالي بهويته الثقافية، لا تجد هذا القدر من الحماسة والاهتمام والافتخار للصومالي بهويته الوطنية المرتبطة بالصومال كدولة ذات سيادة ومعترف بها، وهو ما يظهر بشكل أو بأخر من خلال حالة العزوف لدى الشباب الصومالي عن العودة للصومال والمساهمة في إعادة بنائها ونهضتها، بل تجد الصومالي وخاصة ما أتحدث عنه هنا تحديداً هو النخب التي عاشت وتعلمت بالغرب ولم يعد يربطها شيء بالصومال ولم تعد حتى تفكر بهذه الوطن الذي قدموا منه هم أو أبائهم.

مثل هذه القطيعة والنسيان للوطن الأم ما كان له أن يكون بهذا الشكل لولا أسباب عدة تجمعت وساهمت في حالة قطيعة حادة في الذاكرة الجمعية للأجيال الشابة التي فقدت تواصلها الروحي والثقافي بالوطن الأمة وتصحرت ذاكرتها الجمعية وجفت من كل ما يذكرها بالوطن والأرض والإنسان والذات.

إن حالة النزيف الكبيرة التي تتعرض لها الذاكرة الجمعية للشعوب و تتظافر فيها أسباب عدة - وخاصة في مجتمعات ما بعد الحرب - لكن يبقى السبب الأكبر في هذا التجريف للذاكرة والهوية هو الغياب التام للدور النخبوي الرسالي الذي يجب أن يكون حاضراً في لملمة الذات وتنشيط الذاكرة بالقيام بالدور التوعوي المنوط بهم القيام به وفي مقدمتها الحفاظ على الذاكرة الجمعية وتجديدها بالحفاظ على الهوية الجمعية للأمة وتراثها الفكري والثقافي والروحي وربط كل ذلك بالواقع السياسي المتشكل والمتمثل بفكرة الدولة القائمة باعتبارها أي الدولة اليوم و هي أهم إنجاز في واقع اليوم بكل ما فيها من اشكالات، و الذي ينبغي أن يكون للنخبة المثقفة دوراً مركزياً في حراسة الذاكرة الجمعية والحفاظ عليها من خلال أيضا التركيز على أهمية وجود وتقوية مؤسسات الدولة الصومالية.

ما ألاحظه في المشهد الصومالي اليوم ، ليس الغياب ولكن الحضور الخجول والباهت غير المفهوم للنخبة المثقفة الصومالية وفي في مثل هذه اللحظة المفصلية من تاريخ الصومال، وهي لحظة يجب أن تتظافر فيها كل الجهود الفكرية والثقافية والفنية والأدبية لما لهذه المجالات من أهمية قصوى في تعزيز فكرة الدولة والهوية والذاكرة الجمعية للأمة الصومالية التي تمتلك تاريخاً زاخراً بالاحداث والقيم والتجارب لكنه لايزال بكراً من الدراسة والبحث والتنقيب عن كنوزه وآثاره وملاحمه و بطولاته التي لا تقل عظمة عن غيرها من تاريخ الشعوب العظيمة.

خلاصات و توصيات

كما ذكرنا سابقاً أن فكرة الهوية الوطنية هي معطي سياسي وثقافي وبالتالي الهوية كما يذهب لتعريفها علم الاجتماع بأنها أي الهوية ما يحب الناس أن يرون أنفسهم عليه وبالتالي فإن مسألة الهوية مسالة بنائية تراكمية يمكن الاشتغال عليها وتعزيزها وتحويلها لسردية ثقافية سياسية متماسكة ومتكاملة تزداد حضوراً وتشكلاً مع الأيام ولتعزيز ذلك يجب أن تتبلور عدد من الوسائل للمساهمة في تمتين فكرة الهوية الوطنية.

أولاً: أهمية صياغة دستور الدولة الصومالية المنشودة وفقاً لسردية وطنية دستورية متكاملة تتضمن أهم الأفكار والقيم والمشتركات الوطنية، وتعلي وتقدس جملة من الأفكار و القيم وفي مقدمتها فكرة الدولة والجمهورية والديمقراطية والوحدة الفدرالية، هذا القيم السياسية الوطنية التي يجب أن تكون محل رضا وقبول واحترام كافة مكونات وأفراد الشعب الصومالي كثوابت وطنية لا يمكن المساس بها.

ثانياً: المناهج الدراسية وأهمية تطوير هذه المناهج و ضرورة تضمينها برؤية وطنية واضحة الملامح لفكرة الهوية الوطنية وأهمية ربط النشئ بهذه الفكرة من خلال جملة مدخلات دينية وتربوية وثقافية واجتماعية تسهم كلها في تعزيز فكرة الهوية لدى الأطفال والنشئ وأن المدخل الرئيسي لبناء سردية الهوية الوطنية هو التاريخ وإعادة صياغته بقوالب تربوية وثقافية تتناسب والتحولات الكبيرة في عالم الاتصال والتواصل والمناهج التربوية الحديثة.

ثالثاً: النخبة الثقافية التي يجب أن تعيد رسم دورها بطريقة تتناسب وحجم التحديات الكبيرة التي تنتظر هذه النخبة وأهمية حضورها في المشهد الوطني الصومالي العام و أكثر من أي وقت مضى، وخاصة وأن تحديات الشتات الصومالي تتطلب جهداً أكبر في الحفاظ على اللغة الأم وربط فكرة الحفاظ عليها بالهوية الوطنية والثقافية للأمة الصومالية التي يتوزع بنوها في كل مكان وهم بحاجة لإعادة بناء جسور تواصل فكري وثقافي بين جاليات الشتات الصومالي وربط كل ذلك بالوطن الأم وهويته الثقافية والوطنية على حد سواء.

رابعاً: ضرورة تجاوز فكرة المحاصصة القبلية أو العشائرية السياسية، وتجاوز هذه الفكرة دستوريا قبل كل شيء وممارسة أيضاً، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال تخليق حالة ديمقراطية تعددية على أسس وطنية لا محاصصات قبلية ولتجاوز هذه الإشكالية يجب أن يكون ثمة مؤسسات دستورية تقوم على فكرة أن يكون ثمة مؤسسات يتم تعيين أعضائها من س رئاسة الجمهورية ومجلس الشيوخ الذي يجب أن يتم تعيينه من كبار شيوخ القبائل ومجلس النواب الذي يتم انتخابه بشكل مباشر من أفراد الشعب وأن يتم تعزيز الحالة التعددية والحزبية التي يجب أن تشجيع على قيام الأحزاب على أسس وطنية لا قبلية.

PSSP
Peace and Security Studies
منصة دراسات الأمن والسلام

تناقضات الثقافي والسياسي في تشكلات الهوية الوطنية الصومالية

الكاتب
نبيل البكيري

صادر عن:
منصة دراسات الأمن والسلام

2026